من الأدب الايطالي :

ذلك الرجـــل !!

للشاعر الايطالي جبريل دانونزيو

بقلم الأديب محمد فتحي عبد الوهاب

كان قصير القامة ممشوقها ، تنوء رقبته برأس ضخم يميل قليلا إلى اليسار ، وقد اكتسى هذا الرأس غابة كثيفة من الشعر الكستنائي المسترسل إلى كتفيه في تجعدات والتواءات ، تلعب به الريح لعبها بعرف الجواد ، ولحية كثة كلحية المتقشفين ، تركها دون تهذيب وقد تراكمت عليها ندف صغيرة من القش . وكانت عيناه تتطلعان دائماً إلى موقع قدميه العاريتين ، حتى إذا ما رفعهما ظهر فيهما الغموض والابهام ، ولاح فيهما الرعب ، أو بدتا كما لو كانتا عيني مخبول تارة ، أو رجل محموم تارة أخرى . أو تشهد فيهما ما يجعلك تفكر في الماء الأخضر الآسن الراكد في حفرة ضيقة ، أو في وميض السيف اللامع .

كان يرتدي سترة قديمة حمراء ، قد ألقى بها على كتفيه كأنها المعطف . وكان الناس يروون عنه شتى الأقاصيص ، ويتحدثون عن حب ، وخيانة ، واعتداء ، وهروب ...

كنت في سن الثالثة عشرة عند ما قابلته أول مرة ، فجذبني منظره . وكان ذلك في يوم من أيام الصيف الحارة والميدان الكبير تغمره الشمس ، وقد أقفر إلا من بعض الكلاب تتسكع هنا وهناك ، والسكون مخيم على المكان ، اللهم إلا من ذلك الصرير المعل لعجلة السنان . وكنت قد اعتدت الوقوف برهة أراقب ذلك الرجل من خلف مصراعي نافذة غرفتي ، فأراه يسير في بطء تحت شمس الظهيرة ، يختال في جومن العظمة ، أو يزحف قرب الكلاب في هدوء حتى لا تلاحظه ، ويلتقط حجراً يقذفها به في خفة ثم يهرب متظاهراً بأنه شيء غير منظور ، فتقبل عليه الكلاب وتلتف حوله وهي تبصبص بأذنابها ، فينظر إليها ثم ينفجر ضاحكا ضحكات قصيرة صبيانية فأشاركه ضحكه .

وفي ذات يوم تمالكت شجاعتي ، وأطللت برأسي من النافذة ثم ناديته . فالتفت إلي في سرعة ثم ابتسم ، والتقطت زهرة من الأصيص قذفت بها إليه ، ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقين .

وفي مساء يوم سبت كنت واقفاً على الجسر وحيداً أراقب حركة أسطول الصيادين وهو راجع من الصيد . كانت شمس يوليو البديعة تغرب ، وقد احمرت السماء بالسحب الذهبية ، وتوهج النهر الجاري صوب البحر وارتعشت أمواجه في تلألؤ زاه . وكانت الضفاف تحت الهضبات تلقي ظلها على الماء فتنعكس الأشجار ، وتظهر قممها كأنها نائمة على صفحه الماء في ذلك الجو الحار . وجعلت القوارب تلقي مراسيها في بطء وقد طوت أشرعتها البرتقالية الكبيرة ذات الخطوط الزخرفية السوداء . وابتدأت تفرغ حمولتها من السمك . وسرت الريح تحمل أصوات الفوتية ورائحة الصخور .

والتفت فجأة ورائي فرأيت الرجل واقفاً يتصبب عرقاً ، وقد أخفى يده اليمنى وراء ظهره ، وأضاءت فمه ابتسامته الصبيانية المعهودة . فصحت أهتف باسمه وأنا أمد يدي المتخاذلة إليه في سرور . وتقدم نحوي وقدم إلي بيده التي كان يخفيها باقة أنيقة من الخشخاش الأحمر وسنابل القمح الذهبية . فصحت وأنا أتناولها منه « أشكرك ، أشكرك ، ما أجملها ... »

وسحب يده على حاجبيه ، وجعل يمسح العرق المتساقط ثم ينظر إلى أصابعه المبللة ثم إلي ، وأخيراً ضحك وقال « إن الخشخاش الأحمر ينمو بين القمح الأصفر هناك في الحقول ، فرأيتها وأحضرتها لك فقلت لي » ما أجملها « وكانت الشمس هناك كالنار » .

كان يتكلم في خنوع ، ويقف بين كل كلمة وأخرى كأنه يحاول أن يتبع خيط أفكاره . إن آلاف الصور المبهمة المضطربة كانت تتجمع في ذهنه . فيحاول أن يبرزها ويثبت بائنتين

أو ثلاثة منها ، تلك التي كانت أكثرها ثبوتاً وأوضحها صورة ، وتهرب منه الصور الباقية . كنت ألحظ ذلك في عينيه فأتعجب . وكأنه شعر بما يجول في خاطري ، فأدار رأسه صوب قوارب الصيد وقال وهو يفكر :

— هذا الشراع ، إنه شراعان ، واحد في الهواء ، وواحد في الماء .

كان لايدرك أن الشراع الأسفل انعكاس الشراع الأعلى على صفحة الماء . فجعلت أشرح له ذلك قدر امكاني ، فاستمع إلي في ذهول ، ثم ابتسم وتطلع إلى الأشرعة .

وسقطت زهرة من الخشخاش في النهر ، فراقبها حتى اختفت مع التيار ، ثم قال في صوت حزين لا يوصف « لقد رحلت بعيداً ، بعيداً جداً « وكأنها شيء عزيز لديه » .

وبعد لحظة من الصمت سألته « من أي قرية أتيت ؟ »

فالتفت صوب السماء يتطلع إلى صفاء لونها الزبرجدي . كانت الجبال القاتمة تظهر أمام الأفق كأنها جبار راقد . وامتد الجسر الحديدي فوق النهر يقطع السماء إلى صور صغيرة ، وظهرت خلفه الأشجار الخضراء وقد استحالت إلى أشباح قاتمة . واختلطت ضحكات الجنود في الثكنات بصوت البوق

وأخيراً قال « كان عندي منزل أبيض ، نعم كان كذلك ، تحفه حديقة كبيرة من الفواكه . لقد اعتادت تريزا أن تحضر في المساء . كانت جميلة ، إن عينيها ... ولكن ...»

وكف عن الكلام وقد ظهرت على هيئته الكآبة . ولكن سرعان ما عاد إلى هدوئه ، ثم انحنى لي ، وسار مبتعداً عني وهو يغني .

***

ومنذ ذلك الحين كنتُ كلما أراه يمر في الطريق أناديه وأجود له ببعض الطعام . وفي ذات مرة قدمت إليه القليل من النقود الذي أعطتني إياه والدتي ، فنظر إليّ في صرامة ، ثم دفع بها إلي في احتقار ظاهر ، وأخيراً أدار ظهره ومشى دون أن يلتفت إلي .

وفي ذلك المساء قابلته خارج الميناء الجديد ، فتقدمت إليه قائلا

— سامحني ، سامحني .

فهرب كأنه حيوان جافل ، وفي لحظة كان قد اختفى عن أنظاري بين الأشجار . ولكن في صباح اليوم التالي كان ينتظرني على باب داري ، وابتسم في شجاعة ، ثم قدم إلي باقة يانعة من زهور الرجريت . كانت عيناه محتقنتين بالدموع ، وشفتاه ترتعشان ... وعادت المياه إلى مجاريها .

وفي ذات مرة ، في أواخر شهر أغسطس ، كنا جالسين في نهاية الطريق وكانت الشمس قد توارت بالجبال . وقد امتدت أشجار الصنوبر حتى البحر ، وابتدأ القمر يرتفع في بطء في عنان السماء بين السحب القاتمة ...

ونظر إلى القمر ثم تمتم قائلا « انظر ! الآن تستطيع أن تراه .. تستطيع أن تراه »

وجعل يتأمله لحظة ثم قال « ذلك القمر ! إن له عينين وأنفاً وفماً كالبشر ، لست أدري ما الذي يفكر فيه . من يدري ؟ »

ثم جعل يدندن أغنية ذات لحن حزين ، من تلك الأغنيات التي يرتلها الأهلون عند قطف الكروم في ليالي الخريف الحارة . وكان يلوح لنا عن بعد مصباحا قطار قادم في سرعة ، فظهرا كأنهما عينا وحش تحدقان فينا . ومر القطار يهدر ويتعالى دخانه وصفيره عند عبوره الجسر الحديدي ، وعاد الصمت يخيم تدريجياً على الأرض الشاسعة .

ووقف الرجل على قدميه وصاح وهو يشير إلى القطار المبتعد « إذهب ، إذهب ، إذهب ، بعيداً ، بعيداً ، إنك تنساب كالثعبان ، والنار في داخلك ، النار التي وضعها فيك الشيطان »

ولن أنسى ما حييت منظره وهو واقف في هذه اللحظة ... ولم يهدأ انفعاله الأبعد أن تلاشى صوت القطار وعاد الصمت يخيم على الطبيعة .

وعندما كنا في طريقنا إلى الدار كان لايزال غارقا في أحلامه

* * *

وفي ذات صباح جميل من سبتمبر ذهبنا إلى البحر . إن ذلك الاتساع السرمدي للماء الأزرق العميق كان ممتدا حتى الأفق المتألق ، وكانت قوارب الصيد تبحر أزواجا ، فتظهر كأنها طيور هائلة الحجم مجهولة النوع ، قد نشرت أجنحتها الصفراء القرمزية . وكانت الهضاب الرملية-النحاسية ترقد على طول الساحل خلفنا وقد لاحت من ورائها الكتل الضخمة الخضراء من مزروعات

شجر الصفصاف .

قال فى صوت خافت وكأنه يخاطب نفسه فى لهجة التعجب والشعور بالخوف « يالهذا البحر الخضم الأزرق الضخم ! ويالهذه الأسماك الضارية المفترسة ! أن (أركس) هناك سجين فى قفص من حديد ، يصيح فلا يسمع أحد صيحاته . إنه لن يرجع ثانية . وهذه السفينة السابحة فى الماء ، أنهـــا تجلب الموت لكل من يشاهدها »

ثم صمت .. وأقبل على الشاطئ حتى غمرت الأمواج البيض الصغيرة قدميه . من يدرى مالذى كان يحدث داخل عقل هذا المسكين الضعيف ؟

وبينما نحن مقبلان على الدار وقد التزم الصمت طول الطريق نظرت إليه فأخبرنى قلبى بأشياء غريبة .

وهمس أخيراً فى صوت خافت وهو يأخذ بيدى « إن لك أما فى منزلك تنتظر أوبتك لتقبلك » كانت الشمس تغرب فى الماء الصافى خلف الجبال ، والنهر يتلألأ بشتى الانعكاسات .

فسألته والدموع تتساقط من عينى وأنت ، أين والدتك ؟ »

فنظر إلى عصفورين فى الطريق ، والتقط حجراً سدده كأنه بندقية فى يده ، ثم أطلقه عليهما ، فوليا كأنهما السهام .

وصاح وهو يراقب طيرانهما فى السماء اللامعة وهو يضحك فى صخب « طيرا .. طيرا .. »

* * *

ومرت الأيام فلا حظت فيه تغيراً ، كأنما أصابته الحمى . كان ينطلق مسرعا إلى الحقول كأنه الجواد حتى يقع على الأرض مبهور الأنفاس ، أو يرقد الساعات مفترش الثرى دون حراك يحدق بعينه فى وهج شمس الظهر المحرقة . وعند ما يقبل المساء كان يلقى بمعطفه الأحمر على كتفيه ويتنزه جيئة وذهاباً فى الميدان ، يختال فى خطوات طويله بطيئة كأنه عظيم اسبانى . وكان يتحاشانى ، ولا يجاب لى الزهور . وتألمت لهذا الهجر . كان الناس يدعون بأنه سحرنى . وفى ذات صباح ذهبت قاصداً لقياه . ولكنه لم يرفع عينيه ، بل احمر وجهه كأنما مسته نار . فصحت فى اضطراب « ما الأمر ؟ »

— لاشىء .

— بل هناك شىء .

— لا شىء .

— هذا غير صحيح .

ولاحظت أنه ينظر أمامه بعينين متقدتين ، فالتفت ، فوجدته يتطلع إلى فتاة ريفية حسناء واقفة أمام مدخل حانوت

وتمتم وقد شحب لونه : « تريزا » ففهمت أن الرجل المسكين كان يتخيل فى هذه الفتاة غادة بلدته التى أثرت على قواه العقلية وبعد يومين قابلها فى الميدان ، فاقترب منها مبتسما وهو يقول:

« إنك أكثر جمالا من الشمس . فلطمته بقوة على وجهه

كان هناك بعض الصغار بالقرب منهما ، فجعلوا يسخرون منه بعد أن تركته الفتاة وحيداً مصدوما باهتا ، وابتدأت بقايا الخضر تطير فتتطم فى وجهه . والتفت إلى الصبية ، وهدر كالثور الجريح ، ثم أمســـك بواحد منهم وألقاه على الأرض كأنه من الأسمال

* * *

ورأيته ، يمر أمام نافذتى بين أيدى اثنين من رجال الشرطة مقيداً ، والدم يسيل من لحيته منحنى الظهر ، مرتعش الجسد ، والناس من خلفه يضحكون ويسخرون . نظرت إليه فامتلأت عيناى بالدموع

وكان الحظ قد واتاه ، فان الصبى لم يصب الا بجروح يسيرة ، وخرج من السجن بعد يومين

مسكين ذلك الرجل ! كان قد تغير تغيراً تاماً وأصبح مكتئب الوجه لايثق فى أحد ، غضوبا وكنت أراه فى بعض الأحيان ينفلت مساء فى سرعة كبيرة كأنه الكلب ، ويختفى فى طريق مظلم قذر

وفى ذات صباح مشرق الشمس صافى السماء من اكتوبر وجدوه على خط السكة الحديدية بجانب الجسر وقد تمزق إربا حتى أصبح كتلة دامية مشوهة من اللحم ، وانسحبت احدى ساقيه مع عجلات القطار الذى دهمه إلى مسافة بعيدة ، وظهرت عيناه الخضراوان فى رأسه المقطوع الذقن المصبوغ الشعر بالدم القانى ، تحدقان فى رعب هائل

مسكين ذلك الرجل ! كان يود أن يشاهد القطار عن قرب ، ولكنه كان يبتعد ثم يبتعد — كما كان يقول — ذلك الوحش الطويل ذلك التنين الذى بداخله النار التى وضعها الشيطان !

محمد فتحى عبد الوهاب

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ الزيات

نفدت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التي تباع الآن في البلاد العربية

فاحترس منها

انها الطبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف

والتشويه زيفها أهل الكتبيين في القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريباً

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما في العصرين العباسي والحديث

مبادئ

في القضاء الشرعي

للأستاذ الزين القاضي

كتاب يفيد القاضي والمحامي

وكل مشتغل بالحقوق والفقه

يقع في ٤٦٠ صفحة من القطع المتوسط

ويطلب في القاهرة من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب

ومن المنصورة من الأستاذ علي عبد الله

مكتبة الشامي وثمنه ٣٠ قرشاً عدا البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

خط صحراء سيناء — القنطرة شرق — رفح

يتشرف المدير العام بإعلان الجمهور أنه يسير الآن يومياً القطار رقم ٧٥٠ الذي يغادر القنطرة شرق في الساعة ١٥ ر ٢٣ ويصل إلى رفح في الساعة ٠٠ ر ٤ والقطار رقم ٧٥١ الذي يقوم من رفح في الساعة ٣٠ ر ١٣ ويصل إلى القنطرة شرق في الساعة ١٠ ر ١٨ .